آية التبليغ

في تفسير «روح المعاني» للآلوسي

عرض وتحليل

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية - شعبة البحوث والدراسات

١٤٣٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

سورة المائدة/ آية: ٦٧.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ولا سيما بقية الله في الأرضين عجل الله تعالى فرجه وجعلنا من أشياعه وأتباعه والذابين بين يديه.

تمرّ علينا في الثامن عشر من ذي الحجة في كل عام ذكرى يوم وبيعة وعيد الغدير المبارك وهي مناسبة للفرح والسرور والتهاني والتبريكات لإكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية ورضا الله سبحانه بالإسلام ديناً للمسلمين، وهوَ يوم يأس الكافرين من النيل من دين الإسلام وكل وصف من هذه الأوصاف يستحق أن يكون عيداً فكيف إذا اجتمعت كلها في يوم واحد. وعلى شيعة أهل البيت عليهم السلام أن يبتعدوا كل الابتعاد في غمرة هذا الفرح والاحتفال عن كل مظهر من مظاهر معصية المولى سبحانه فلا يمكن إطاعة الله من حيث يعصى بل على الموالين أن يملأوا هذا اليوم طاعة وقد ورد استحباب صيام هذا اليوم وزيارة أمير المؤمنين عليه السلام تجديداً لتلك البيعة الواجبة في رقاب جميع خلق الله من الأولين والآخرين، ومن أهم ما يمكن أن نملأ فيه ذلك اليوم أن يعرف الإنسان الموالي حقيقة ذلك اليوم بالدليل والبرهان؛ إنه يوم تنصيب أمير المؤمنين عليه السلام من قِبل رسول الله صلى الله عليه وآله وبأمر الله سبحانه خليفة للمسلمين وأمر الأمة ببيعته وفرضها عليهم كما فرضَ الصلاة والصوم والزكاة والحج، بل أكثر من

ذلك كما فرض توحيد الله والمعاد إليه ونبوة نبيه ﷺ .وقد خلد القرآن الكريم هذه الواقعة في ثلاث آيات كريمات الأولى «وهي آية التبليغ» تحث الرسول الأكرم ﷺ حثاً شديداً يشبه التهديد بإبلاغ الولاية الكبرى وجلعها في كفة وكل ما عداها من التشريعات الإلهية في كفة أخرى وجعل عدم تبليغها هو عدم تبليغ كل الدين وضمن للرسول الأكرم ﷺ العصمة من الناس كأن فيهم من لا يرضى بهذه الولاية، وهناك تأمين إلهي بعدم بلوغ هؤلاء أمانيهم وفي الآية الثانية «وهي آية إكمال الدين » إذا قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١)

يصف المولى سبحانه يوم الغدير الأغر بأنه اليوم الذي كمل به الدين وتمت النعمة ووصول الكافرين - كل الكافرين- إلى مرحلة اليأس من التأثير في الدين الإسلامي لعدم قدرتهم على ذلك لكن هناك خطر داخلي يهدد الأمة فواجب المسلمين خشية الله سبحانه في تطبيق أوامره وعدم تعديها الذي يسبب رجوع طمع الكافرين في الدين وفي الآية الثالثة «وهي آية سأل سائل » يبين المولى سبحانه جزاء من لا يرضى بهذه الولاية رغم معرفته بأنها أمر من أوامر الله سبحانه وأن العذاب القريب ينتظره. هذا إذا رجعنا

(١) المائدة/ آية٣.

إلى العِدل الثاني للقرآن الكريم مع القرآن أما إذا تركت الأمة هذا العِدل فستصل إلى تفاسير أخرى بعيدة كل البعد عن هذه التفسير، وسنقف في بحثنا المتواضع مع الآلوسي في تفسيره للآية الأولى وهو «مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ. وعزل، فانقطع للعلم. ثم سافر «سنة ١٢٦٢هـ» إلى الموصل، فالأستانة، ومر بماردين وسيواس، فغاب ٢١ شهرا وأكرمه السلطان عبد المجيد. وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفي٠٠٠ وفي وفاته اختلاف»(١). وقد افتخر بما كتب فقال «فإني لا أظن أنك تجده في كتاب»(٢).

وهو أنموذج له أشباه كثيرة في عالم التفسير في مدرسة الصحابة.

نسأل الله سبحانه أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا أتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه

وصلى الله على محمد وآل محمد

(١) الأعلام خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت / لبنان، ج ٧ /١٧٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسى سيد محمود، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ج٣، ص: ٣٦٦.

ما أنزل إليك

أول ما يطالعنا في تفسيره لآية التبليغ وبعد وقوفه على معنى الرسول وأن مهمته التبليغ أنه فسر الأمر النازل على الرسول الأكرم ﷺ والمأمور بتبليغه هو ليس أمراً معيناً نزل بعد عدة أمور تم تبليغها بل هو «جميع ما أنزل كائنا ما كان ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي مالك أمرك و مبلغك إلى كمالك اللائق بك»[1] وهذا يستدعي أن يكون الرسول الأكرم ﷺ لم يبدأ بالتبليغ أصلاً وفي الآية أُمر بهذه البداية والحال أن سورة المائدة إن لم تكن هي آخر سورة نزلت فهي من آواخر السور النازلة وباعترافه هو فقد قال: « أخرج غير واحد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: المائدة آخر سورة نزلت، و أخرج أحمد والترمذي عن ابن عمر أن آخر سورة المائدة و الفتح، وقد تقدم آنفا عن البراء أن آخر سورة نزلت براءة، ولعل كلا ذكر ما عنده، و ليس في ذلك شيء مرفوع إلى النبي صلّى الله عليه وسلم، نعم أخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: «قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: المائدة من آخر القرآن تنزيلا فأحلوا حلالها و حرموا حرامها» وهو

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص: ٣٥٦.

غير واف بالمقصود لمكان «من». واستدل قوم بهذا الخبر على أنه لم ينسخ من هذه السورة شيء، وممن صرح بعدم النسخ عمرو بن شرحبيل والحسن رضي الله تعالى عنهما، كما أخرج ذلك عنهما أبو داود، وأخرج عن الشعبي أنه لم ينسخ منها إلا قوله تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلائِدَ﴾[1].

وأخرج ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله سبحانه:

﴿فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[2].

وادعى بعضهم أن فيها تسع آيات منسوخات»[3]،وحاول ان يجمع بين الأمرين فأضطر للقول أن عدم أداء البعض يعني عدم أداء الكل لأن ليس هناك بعض هو أولى بالتبليغ من البعض الآخر، كما أن عدم الإيمان بالبعض يكون نتيجته

(١) المائدة:٢.

(٢) المائدة:٤٢.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٢٢.

عـدم الإيمـان بالكل، ومثّـل لذلك بأركان الصـلاة وقد ناقش نفـي الأولوية بأنهـا ثابتة لأن بعض الواجـب قطعي والآخر ظـني ومنـه ا لجلي ومنه الخفـي، ونقل عن غـيره جواباً على ذلك بأن أصل الوجوب ثابت في ا لجميع أولاً والأولوية راجعة للمبلـغ لكنـه رجـع وذكـر بعـض الأحاديـث تعضد رأيـه بأن معنـى «ما أنزل إليك» هو جميع ما أنزل إليك فقد نقل عن «إسـحاق بـن راهويه في مسـنده من حديث أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه، وأخرجه أبو الشيخ و ابن حبان في تفسيره من مرسـل الحسـن أن النبي صلّى الله عليه وسـلم قال: «بعثني الله تعالى بالرسالة فضقت بها ذرعا، فأوحى الله تعالى إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت» . وقيل: إن المـراد إن تركت تبليغ ما أنزل إليك حكم عليك بأنك لم تبلغ أصـلا، وقيـل - وليتـه ما قيل - المـراد بما أنزل القـرآن، وبما في ا لجـواب بقية المعجـزات، وقيل: غير ذلك، واسـتدل بالآية علـى أنـه صلّـى الله عليه وسـلم لم يكتم شـيئا مـن الوحي، ونسـب إلى الشـيعة أنهم يزعمون أنه عليه الصلاة و السـلام كتم البعض تقية»[1]، والظاهر من هذا الحديث المرسل - وهو ممـا لا يحتـج به - أن الآية نزلـت في أول البعثة وهذا خلاف ما قاله أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن في بداية

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص: ٣٥٥.

تفسـيره للسورة المباركة أما الـ «قيل» فقول لا يُعرف صاحبه وسـواء ليته قال أو لم يقل كيف يكون منبعاً لتفسـير القرآن أما عدم كتم النبي ﷺ لشـيء من الوحي فهو مسـلّم لكنه لا يفسـر ما هو الشـيء المنزل على الرسـول الأكرم ﷺ وأما ما نسـبه إلى الشـيعة بأنهم يزعمون أن النبي ﷺ كتم بعض ما أنـزل إليه تقية فليتـه دلنا على مصدر ذلـك لكنه لم يفعل، وفي مـكان آخر مـن بحثه عن الآية يدخل عَمّـا النبي ﷺ أبو طالب والعباس مما يدل على أن الآية نزلت في مكة وفي بداية الدعوة الإسلامية وهو خلاف ما ذكره في بداية تفسيره لسورة المائـدة فقـد ذكر «أخرج ابن مردويـه والضياء في مختاره عن ابن عباس قال: سـئل رسـول الله صلى الله عليه وسلم أي آية أنزلت من السـماء أشـد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم و اجتمع مشـركو العرب وأفناء الناس في الموسـم فأنزل عليّ جبريل عليه السلام فقال:

﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ .

الآيـة، قال: فقمت عند العقبـة فناديت: يا أيها الناس من ينصرنـي على أن أبلغ رسـالات ربي ولكم ا لجنـة، أيها الناس

قولوا: لا إله إلا الله و أنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمة ولا صبي إلا يرمون علي بالتراب والحجارة، ويقولون: كذاب صابىء، فعرض علي عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي صلّى الله عليه وسلم: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه.قال الأعمش: فبذلك تفتخر بنو العباس، ويقولون: فيهم نزلت

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ (١)

هوى النبي صلّى الله عليه وسلم أبا طالب، وشاء الله تعالى عباس بن عبد المطلب وأصرح من هذا ما أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم في الدلائل وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «كان النبي صلّى الله عليه وسلم يُحرس، وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت:

(١) القصص: ٥٦.

﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: يا عم إن الله عز و جل قد عصمني» فإن أبا طالب مات قبل الهجرة، وحجة الوداع بعدها بكثير، والظاهر اتصال الآية»(١)، كل هذا الاختلاف اضطره إلى ادعاء نزول الآية أكثر من مرة ولم يكلف نفسه عناء البرهنة على ذلك.

الشرط والجزاء

على أثر ذلك وقع في إشكال آخر وهو اتحاد الشرط وا لجزاء في الآية المباركة فيكون معناها «إن لم تبلغ رسالته فلم تبلغ رسالته» وقد اعتذر لذلك ب«جعله نظير: أنا أبو النجم وشعري شعري. حيث جعل فيه الخبر عين المبتدأ بلا مزيد في اللفظ، وأراد- وشعري شعري- المشهور بلاغته والمستفيض فصاحته، ولكنه أخبر بالسكوت عن هذه الصفات التي بها تحصل الفائدة أنها من لوازم شعره في إفهام الناس السامعين

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٦٥.

لاشتهاره بها، وأنه غني عن ذكرها لشهرتها وذياعها»[1]، وقد رد السيد الطباطبائي بأن هذا التوجيه «فاسد لأن هذه الصناعة الكلامية إنما تصح في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد ونظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم: شعري شعري أي لا ينبغي أن يتوهم على متوهم أن قريحتي كلّت أو أن الحوادث أعيتني أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعري الذي أقول اليوم هو شعري الذي كنت أقوله بالأمس.و أما قوله تعالى:

﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ .

فليس يجري فيه مثل هذه العناية، فإن الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآية في أول البعثة أمر واحد غير مختلف ولا متغير حتى يصح أن يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة أو لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض أنه أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية»[2].

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٥٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي سيد محمد حسين، جماعة المدرسين، قم ج٦، ص: ٤٦.

مسألة الأسرار الإلهية

خاض في موضوع الأسرار الإلهية وأقوال الصوفية وأهل الكشف وإن كان التحقيق عنده أن الأسرار الإلهية والأحكام الشرعية موجودة في كتاب الله، وقد نقل عن المرسي «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ثم رسول الله خلا ما استأثر به سبحانه ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة ومثل ابن عباس وابن مسعود حتى قال الأول: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه»[1]، ومن العجيب أن يذكر الآلوسي نفسه إن بعض من ورد اسمه هنا ردت عليه أمرأة في مسألة صداق الزوجة وأحتجت بآية كريمة ظاهرة المعنى[2] ثم جعل ذلك من الفضائل ولا يهمنا أن تكون كذلك أو ليس كذلك، لكنه على كل حال يوصف بعدم معرفتهم لظاهر القرآن فضلا عن الأسرار الإلهية، نعم لأمير المؤمنين عليه السلام

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص ٤٥٤.

(٢) أنظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٤٥٤.

شأن آخر فقد سأله أبو جحيفة «هل عندكم كتاب خصكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا إلا كتاب الله تعالى أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة - و كانت متعلقة بقبضة سيفه - قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر»[1]،وهذا الحديث عند مفسر من مدرسة اهل البيت عليهم السلام أكبر بكثير مما ذُكر فقد «روي عن علي عليه السلام: أنه قيل له: هل عندكم شيء من الوحي؟ قال: لا والذي فلق الحبة و برأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه .أقول: و هو من غرر الأحاديث، و أقل ما يدل عليه: أن ما نقل من أعاجيب المعارف الصادرة عن مقامه العلمي الذي يدهش العقول مأخوذ من القرآن الكريم.»[2].

وعلى كل حال فالآلوسي لم يبين لقارىء تفسيره هل هذه الأسرار هي المقصودة في «ما أنزل إليك» خاصة بعد رده قول « الطيبي ما ورد عن أبي هريرة «حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وعاءين من العلم فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»[3]، على الأسرار الإلهية التي لا يتحملها

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم،ج٣، ص: ٣٥٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص ٧٢.

(٣) صحيح البخاري الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ج١ ص٦٥.

الناس بحيث يقتلون قائلها، فقد رفض الآلوسي هذا التوجيه «وحمل وعاء أبي هريرة رضي الله تعالى عنه الذي لم يبثه على علم الأسرار غير متعين لجواز أن يكون المراد منه أخبار الفتن وأشراط الساعة وما أخبر به الرسول صلى الله عليه وآله من فساد الدين على أيدي أغيلمةٍ من سفهاء قريش وقد كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت، أو المراد الأحاديث التي فيها تعيين أسماء أمراء الجور وأحوالهم وذمهم، وقد كان رضي الله تعالى عنه يكني عن بعض ذلك ولا يصرح خوفاً على نفسه بقوله أعوذ بالله سبحانه من رأس ستين وإمارة الصبيان يشير إلى خلافة يزيد الطريد لعنه الله تعالى على رغم أنف أوليائه لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب الله تعالى دعاء أبي هريرة رضي الله عنه فمات قبلها بسنة»[1]وهذه من حسنات الآلوسي وكم فرق بينها وبين ما يراه ابن تيمية حيث رمى با لجهل من قال إن أهل البيت هم الأئمة الاثنى عشر المبشر بهم في التوراة، ويعدد اثني عشر غيرهم بينهم معاوية ويزيد.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم ج٥ ص٦٥.

من حسنات الآلوسي الأخرى أنه يذكر حديث غدير خم في تفسير آية التبليغ وآية إكمال الدين وهو من ضمن أقل القليل الذين ذكروا ذلك، لكنهم كلهم يقولون إنها نزلت في فضل علي لا في خلافته، وكم فرق بين الاثنين فكل ما في يوم الغدير – حسب رأيه – أن بعض الصحابة ممن كانوا مع علي عليه السلام باليمن أغضبوه وشكوه للنبي صلى الله عليه وآله فأراد أن يبين لهم مكانة علي عليه السلام وأن محبته ونصرته عليه السلام هي محبة ونصرة للنبي صلى الله عليه وآله ويستبعد أن تكون الآية كما ترى الشيعة الإمامية «لأن التخوف الذي تزعمه الشيعة منه صلى الله عليه وآله – وحاشاه في تبليغ أمر الخلافة – إنما هو من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، حيث أن فيهم – معاذ الله تعالى – من يطمع فيها لنفسه، ومتى رأى حرمانه منها لم يبعد منه قصد الإضرار برسول الله صلى الله عليه وآله، والتزام القول – والعياذ بالله عز وجل – بكفر

من عرضوا بنسبة الطمع في الخلافة إليه مما يلزمه محاذير كلية أهونها تفسيق الأمير كرم الله تعالى وجهه وهو هو، أو نسبة الجبن إليه – وهو أسد الله تعالى الغالب – أو الحكم عليه بالتقية – وهو الذي لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم ولا يخشى إلا الله سبحانه – أو نسبة فعل الرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل الأمر الإلهي إلى العبث»[1]، فنرى هذا النص من الآلوسي يورد أموراً يعتبرها أدلة على كون الآية في فضله لا في خلافته، وأول تلك الأمور استبعاده أن يتخوف الرسول صلى الله عليه وآله من الصحابة، ونحن نقول من الاستحالة أن يكون تخوف الرسول صلى الله عليه وآله من أصحابه المرضيين عند الله سبحانه، بل من المنافقين الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله، وقد نقل الآلوسي نفسه في تفسيره «أخرج البيهقي من الدلائل عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله أقود به وعمار يسوق وأنا أسوق وعمار يقود حتى إذا كنا بالعقبة فإذا

(١) روح المعاني ج٣ ص٧٣.

أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهت رسول الله ﷺ فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله كانوا متلثمين ولكن قد عرفنا الركاب، قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة هل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا، قال: أرادوا أن يزلوا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها، قلنا: يا رسول الله أولا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث كل قوم برأس صاحبهم، قال أكره أن يتحدث العرب عنا أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم»[1]، والملاحظ إن هؤلاء الاثنى عشر هم من المقربين للرسول الأكرم ﷺ بدلالة معرفة حذيفة وعمار ركابهم، فأين ذهب هؤلاء وغيرهم من أمثالهم بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، وقد عاش حذيفة واختص بأسرار النفاق تلك الفترة فكان يصفها «إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ كانوا يسرّون واليوم يجهرون»[2]، أما

(١) روح المعاني، ج٧ ص٢٩٣.

(٢) صحيح البخاري ج٦ ص٦٠٤.

نسبة فعل الله وفعل رسوله إلى العبث فلا نفهم له وجهاً فالله سبحانه يحكم ورسوله ﷺ يبلغ وعلى المكلفين إن يطبقوا ما أمروا به وينتهوا عما نهوا عنه اختياراً لا جبراً. هذه سنة الله سبحانه فأين العبث إذا حكم الله وبلغ رسوله ولم يطبق بعض الناس، والناس تتحمل تبعات تطبيق حكم الله وتتحمل تبعات عدم التطبيق فأين العبث؟ أما الأمور الثلاثة التي يدور عليها افتراض حال أمير المؤمنين عليه السلام بين الفسق والجبن والتقية، فأمير المؤمنين عليه السلام أجل من أن ندخله في مناقشة لدفع الأمرين الأولين، أما التقية، فإن كانت هي وظيفة الإمام عليه السلام وتكليفه الشرعي فما العيب بذلك؟ وما المحذور في ذلك؟ وبالخصوص إذا علمنا أن الرسول الأكرم ﷺ شبّه منزلة أمير المؤمنين عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى، وقد أخلف موسى هارون عليه السلام على قومه لكن قومه لم يتبعوا الخليفة الشرعي بل اتبعوا غيره. وقد اعتذر هارون عليه السلام عن موقفه «وهو موقف يشبه موقف أمير المؤمنين عليه السلام »مما

حكاه القرآن عنه وقد فسره الآلوسي «وحاصل اعتذاره عليه السلام أني رأيت الإصلاح في حفظ الدماء والمداراة معهم وزجرهم على وجه لا يختل به أمر انتظامهم واجتماعهم ولا يكون سببا للومك إياي إلى أن ترجع إليهم فتكون إن المتدارك للأمر حسبما تراه لا سيما والقوم قد استضعفوني وقربوا من أن يقتلوني كما أفصح عليه السلام بذلك في آية أخرى»[1]، وقد قال في تفسير هذه الآية الأخرى «إن القوم الذين فعلوا ما فعلوا ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾ أي استذلوني وقهروني ولم يبالوا بي لقلة أنصاري ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك، والمراد أنني بذلت وسعي في كفهم ولم آلُ جهداً في منعهم»[2]، ولا يسعنا التصديق أن الآلوسي بهذه الكلمات في مقام ذم هارون عليه السلام أو توصيفه بأحد تلك الصفتين فليكن هارون هذه الأمة مثل هارون تلك الأمة وقد شبه هذا الهارون بذلك الهارون من لا ينطق عن الهوى، والأقرب أن تكون مثل

(١) روح المعاني الآلوسى ج ١٢ ص٢٥٢..

(٢) نفس المصدر ج٦ ص٣٧٢.

هذه الكلمات هي في مقام ذم من ترك هارون عليه السلام واتبع غيره ولم يكتف بذلك بل أراد قتله وخذلانه وقهره، ولا نعتقد أن الآلوسي يقصد ذم أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال ما قال لمجرد إلزام خصمه بذلك وهو القائل: «وذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله تعالى وجهه، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغضهم علي بن أبي طالب، وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده، وعندي أن بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق»[1]، لكنا على كل حال لا نوافقه أن الآية نزلت في فضل علي لا في خلافته، ونقول له ما قاله السيد عبد الحسين شرف الدين مخاطباً شيخ الأزهر «وَلِمَ خصه بهذه الدعوات التي لا يليق لها إلا أئمة الحق، وخلفاء الصدق، ولماذا أشهدهم من قبل، فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: بلى فقال: من كنت مولاه،

(١) روح المعاني، ج١٩ ص١٦٢.

فعلي مولاه، أو من كنت وليه، فعلي وليه، ولماذا قرن العترة بالكتاب؟ وجعلها قدوة لأولي الألباب إلى يوم الحساب؟ وفيم هذا الاهتمام العظيم من هذا النبي الحكيم؟ وما المهمة التي احتاجت إلى هذه المقدمات كلها؟ وما الغاية التي توخاها في هذا الموقف المشهود؟ وما الشيء الذي أمره الله تعالى بتبليغه إذ قال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

وأي مهمة استوجبت من الله هذا التأكيد؟ واقتضت الحض على تبليغها بما يشبه التهديد؟ وأي أمر يخشى النبي الفتنة بتبليغه؟ ويحتاج إلى عصمة الله من أذى المنافقين ببيانه»[1].

(١) المراجعات الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق وتعليق حسين الراضي.ط٢، بيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، .ص٢٧٧.

الناس

نوافق الآلوسي تمام الموافقة على أن بغض عليّ عليه السلام من أقوى علامات النفاق، فأينما يوجد هذا البغض فلا يفارقه النفاق، وهذه القاعدة غير قابلة للاستثناء سواء أكان المبغض معاصراً لرسول الله صلى الله عليه وآله أم لم يكن كذلك. وهؤلاء المنافقون قد وصفهم القرآن بأنهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾[1].

والولاية مصداق لما أنزل الله فمن الطبيعي أن يصد المنافقون عنها صدوداً، ورغم ذلك فقد أبعد الآلوسي هذا الخطر من حساباته وأصر على أن العصمة الإلهية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هي من القتل، والكافرون هم الخطر الخارجي الذي قد يخاف منه على حياة الرسول صلى الله عليه وآله رغم أن الآيات نزلت في أواخر عهد النبي صلى الله عليه وآله وهو زمن انحسار قوة الكفر

(١) -سورةالنساء/ أية ٦١.

وإطفاء نائرتهم وكسر شوكتهم وكل ما يملك من دليل هو السياق من دون أن يكلف نفسه بإثبات أن الآيات نزلت جملة واحدة « إيراد الآية في تضاعيف الآية الواردة في أهل الكتاب لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها و يشق على الرسول صلّى الله عليه و سلم مشافهتهم بها، و خصوصا ما يتلوها من النص الناعي عليهم كمال ضلالهم، و لذلك أعيد الأمر فقال سبحانه: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ﴾ ، والمراد بهم اليهود والنصارى- كما قال بعض المفسرين- وقال آخرون: المراد بهم اليهود »[1]وقد نسى المنافقين الذي وصفهم القران ﴿هُمُ الْعَدُو﴾ [2]وقد فسر ذلك بـ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ استئناف أي هم الكاملون في العداوة و الراسخون فيها فإن أعدى الأعادي العدو المداجي الذي يكاشرك و تحت ضلوعه الداء الدوي ككثير من أبناء الزمان فَاحْذَرْهُمْ لكونهم أعدى الأعادي و لا تغترن بظاهرهم »[3]وقد مر بنا أن اثني عشر منهم حاولوا

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم،ج٣، ص: ٣٦٦.

(٢) -سورة المنافقون/ آية:٤.

(٣) روح المعاني، ج١٤، ص ٣٠٧.

قتل النبيﷺ في حياته فلا ندري هل انتهى دورهم عند فشل تلك المحاولة.

نتائج البحث

يمكن ملاحظة أمورا في تفسير الآلوسي ولا تخلو بقية التفاسير منها أو بعضها:

١- التغاضي عما ورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام، بل غض الطرف عما ورد عنهم عليهم السلام الموجود في بعض مصادر جمهور المسلمين.

٢- التغاضي عما ورد في كتب علماء مدرسة الصحابة من نزول الآية في غدير خم. وحسب تتبع الشيخ الأميني هناك ثلاثين عالماً من مدرسة الصحابة ذكر ذلك.

٣- القلة التي اعترفت بنزول الآية في غدير خم قالوا أنها نزلت في فضل علي لا في خلافته وأغرقوها بالاحتمالات

الأخرى. وكمثال على ذلك ما ذكره الرازي:

«الأول: أنها نزلت في قصة الرجم و القصاص...

الثاني: نزلت في عيب اليهود و استهزائهم بالدين...

الثالث: لما نزلت آية التخيير،...

الرابع: نزلت في أمر زيد و زينب بنت جحش...

الخامس: نزلت في الجهاد...

السادس: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ...

السابع: نزلت في حقوق المسلمين،...

الثامن:روي أنه صلى الله عليه و سلم نزل تحت شجرة في بعض أسفاره و علق سيفه عليها، فأتاه أعرابي و هو نائم فأخذ سيفه واخترطه و قال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال «الله» فرعدت يد الأعرابي و سقط السيف من يده

وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه...

التاسع: كان يهاب قريشا و اليهود و النصارى، فأزال الله عن قلبه تلك الهيبة بهذه الآية.

العاشر: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده و قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» فلقيه عمر/ رضي الله عنه فقال:هنيئا لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة، و هو قول ابن عباس و البراء بن عازب ومحمد بن علي».[1]

٤- الاعتماد على السياق بدون إثبات أن هذا السياق ثابت نزولاً مع أن الروايات تدل على نزولها وحدها.

٥- الاعتماد على من ليس قوله حجة بل الاعتماد على «قيل ويقال» وهي أقوال لا يُعرف صاحبها. وكمثال على

(١) - مفاتيح الغيب، فخرالدين الرازى ابوعبدالله محمد بن عمر، الناشر: دار احياء التراث العربى، بيرو ت -لبنان، ج١٢، ص:٤٠١.

ذلك تفسيرالآلوسي لأولي الأمر الذي فرض الله طاعتهم وقرن طاعتهم بطاعته فقال «اختلف في المراد بهم فقيل:..... وقيل:....، وروي ذلك عن أبي هريرة و ميمون بن مهران، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وأخرجه ابن عساكر عن أبي صا لح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقيل:..... وروى ذلك غير واحد عن ابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد والحسن وعطاء وجماعة»[1]

٦- عدم الالتفات إلى زمان نزول الآية وأنها باعترافه نزلت آخر عهد الرسول ﷺ. فيكثروا من الروايات ذات الأجواء المكية.

٧- في كثير من الأحيان تسليط الضوء على جزء الآية وعدم الاهتمام بربط هذا ا لجزء با لجزء الثاني من نفس الآية.

٨- مخالفة ما يذهب إليه المفسر للواقع الخارجي الذي

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج٣/ ٦٤.

عاشته الأمة.

٩- التنافي والتضاد بين آراء مفسري جمهور المسلمين في تفسير هذه الآية بل اضطراب المفسر الواحد وذلك لعدم ركونه إلى ركن وثيق.

١٠- حيرته باتحاد فعل الشرط وجوابه و لجوئه لبيت من الشعر.

المصادر

القرآن الكريم.

١. الأعلام خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت / لبنان.

٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسى سيد محمود، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

٣. الميزان في تفسير القرآن،: الطباطبائي سيد محمد حسين،جماعة المدرسين، قم.

٤. صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

٥. المراجعات، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق وتعليق حسين الراضي.ط٢، بيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

٦. مفاتيح الغيب، فخرالدين الرازي أبو عبدالله محمد بن عمر، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

الفهرست

المقدمة.....٣

مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ.....٦

الشرطوا لجزاء.....١١

مسألة الأسرار الإلهية.....١٣

الغدير.....١٦

الناس.....٢٣

من نتائج البحث.....٢٥

المصادر..... ٣٠